رولان بارت يقرأ هيلمسلاف

أ.جمال بلعربي
مركز البحث العلمي والتقني لطوير اللغة العربية

تاريخ الإرسال:02-07-2018 تاريخ القبول:27-09-2018 تاريخ النشر:01-02-2019

ملخص البحث:سوف نطرح في هذه الورقة ونناقش قراءة رولان بارت للمشروع الغلوسيمي وإعادة صياغة بعض المفاهيم والتصورات الهيلمسلافية في صيغة تختلف تماما عن ذلك المشروع وبرنامجه العلمي. غير أن قراءة بارت "غير الوفية" هذه، كما هو الحال مع قراءة غرايماس ودريدا.. وغيرهم، ساهمت في تسويق وتحيين العديد من المفاهيم الهيلمسلافية.لقد كانت تلك المفاهيم عند ظهورها تبدو مغالية في التجريد والصورنة، وساهمت في لفت الانتباه إلى حلقة كوبنهاغن اللسانية البنيوية وإنجازاتها، ربما أكثر مما ساهمت به أعمال الغلوسيميين من داخل الحلقة نفسها.

نوجه اهتمامنا خلال التحليل إلى محاولة تأسيس السيميولوجيا خارج التصور السيميائي الهيلمسلافي، أي من علم شمولي النزعة وتجريدي الإبستيمولوجيا، يقوم على الانسجام الداخلي، ويسعى إلى استيعاب كل المعارف البشرية، إلى اختصاص بحثي عابر، سرعان ما نتوقع تركه حتى على مستوى المؤسسات العلمية؛ كما سندقق أكثر حول ثنائية التصريح والتلميح أو التقرير والإيحاء، كمفهومين أساسيين يستعملهما القاريء عندما يطرح مسألة الإيديولوجيا وبنية النسق، وحول مفهوم اللغة الواصفة الذي يستعيره هيلمسلاف من المناطقة ولكن سرعان ما يغير تسميته إلى سيميائية واصفة بينما يواصل ذلك المصطلح رحلته عند السيميولوجيين، ومنهم بارت نفسه،"لغة واصفة" ولكن بمعنى مختلف. نحاول أن نقرأ تجربة بارت، ونتبين التفاعل الذي جرى بينه وبين الفكر الهيلمسلافي، كتجربة أساسية في تاريخ السيميائيات.

الكلمات المفتاحية:بارت – سيميولوجيا – سيميائيات – هيلمسلاف – غلوسيمية – إيحائية.

Abstract: I will expose and discuss Barthes's reading of the glossematic project. Barthes has reformulated some of the most important terms and concepts of Hjelmslev, in a very different version from that project and its scientific program. Though, this non-verbal reading like the one of Greimas, or Derrida.. has

participated in spreading and updating several of hjelmslevian concepts. These concepts were seen, at their first appearance, as exaggerating in their abstractness and formal aspect. So the reading of Barthes would have participated in attracting interest towards the Copenhagen structural linguistic circle and its production, more than the works of the glossematic writers themselves.

We will focus during the analysis on the attempt to establish the semiology out of the semiotic concept of Hjelmslev. As a temporary research field that could sooner be rejected even by academic institution, instead of a general science with an abstract epistemological aspect, based on its intrinsic coherence. We will give more importance to the denotation and connotation, and also to metalanguage that Hjelmslev borrowed from the logicians and transforms into metasemiotics, but in a new sense.

Key words: Hjelmslev – Barthes – glossematics – semiotics – connotation.

مقدمة: من المفارقات التي تلاحق المفاهيم الهيلمسلافية أنها حاضرة بقوة في العديد من المشاريع والأجهزة المفاهيمية، السيميائية، لكن في غياب هيلمسلاف، وفي غياب مشروعه العلمي المسمى بالغلوسيمية. والأكثر من ذلك إثارة للسؤال أن تلك المفاهيم تتغير وتتوطن في برامج معرفية مغايرة دون أن تفقد نسبتها وانتسابها، مع أنها كثيرا ما تفقد من مفاهيمها ومن قيمتها النسقية التي تتمتع بها داخل التصور الغلوسيمي. وقد حدث مثل ذلك في مساحة تقاطع فيها الإسهام الفكري السيميولوجي البارتي مع المشروع الهيلمسلافي. كما تقاطعت معه مشاريع أخرى، منها مشروع غرايماس ومن خلاله مدرسة باريس. لكن بارت لم يقتصر على التقاطع أو حسن الجوار بل جاءت أطروحته وكأنها تحاول أن تتخذ من هيلمسلاف مجرد نقطة انطلاق أولية لبناء تصور جديد للمغامرة السيميولوجية. غير أن تلك المحاولة جرت في وقت لم تكن فيه أعمال هيلمسلاف متوفرة للقارئ الفرنسي، وكانت كتاباته موغلة في التجريد أو على الأقل تبدو كذلك، ولا تقدم أي تنازل بيداغوجي من أجل التقرب (ولا مجرد الاقتراب) من المتلقي المحاصر

بالشواهد والأمثلة التطبيقية. ومع ذلك قدمت قراءة بارت لهيلمسلاف إضافة نوعية للبحث السيميائي، النظري والتطبيقي على حد سواء.

نحاول في هذه الورقة أن نناقش تلك القراءة وندرس نقاط ارتباطها بالمتن ونقاط مفارقتها له، ونستغل الفرصة لنقدم الأطروحة الغلوسيمية قبل قراءة بارت، أو بعبارة أكثر وضوحا، نحاول أن نضع مناقشتنا على محور يبدأ مع دي سوسير وينتهي عند بارت، مرورابالمنعطف الهيلمسلافي الأساسي. وسوف نوزع النقاش على الفقرات التالية:

1- المنطلقات الأساسية لسيميائية هيلمسلاف

2- التحليل الغلوسيمي: تعبير/مضمون، شكل/خامة

3- المغامرة السيميولوجية عند بارت

4- تأصيل ثنائية التقرير/الإيحاء

5- بارت يعيد صياغة هيلمسلاف

نتعرف في البداية على "السوسيرية"في صورتها الأكثر تجريدا كما يتصورها هيلمسلاف، قارئه بامتياز، حيث تنتقل اللسانيات من موقع العلم النموذجي، الذي يبرر إنشاء علم أعم يمكن أن يسمى السيميولوجيا، إلى مرحلة "أنقى" تسمى "اللسانيات اللسانية"، ثم إلى مرحلة أكثر تجريدا تسمى الغلوسيمية. وفي هذا المستوى نتطرق إلى التحليل الرباعي للعلامات وللنصوص، إلى مستوى للتعبير ومستوى للمضمون، يتكون كل منهما من شكل وخامة، ونوضح العلاقة بينها. وبعد ذلك نتطرق للتصور البارتي للسيميولوجيا والذي ينطلق فيه من الأصل السوسيري لهذا الاختصاص ومن قراءة أولية لقراءة هيلمسلاف لذلك التصور. وفي هذا الإطار نحاول تأصيل ثنائية تقرير/إيحاء[1] باعتبارها مفهوما أساسيا في الغلوسيمية[2]

وكذلك في سيميولوجيا بارت. ونصل في الختام إلى خصوصيات الصياغة البارتية للمفاهيم الهيلمسلافية.

1- المنطلقات الأساسية لسيميائية هيلمسلاف:

لم يكن مشروع هيلمسلاف منذ بدايته سيميائيا، بل كان يسعى لبناء "لسانيات علمية" تحمل اسم "النحو العلمي"[3]، ثم "لسانيات لسانية"[4]. وبعد مباشرة البحث النظري في هذا المشروع تبين أن المهمة ستكون أكثر صعوبة وتعقيدا من ذلك، وأن المهمة التي راهن عليها ديسوسير تحت باب السيميولوجيا، حتمية لا مفر منها بالنسبة لأي بحث لساني علمي. واتخذ المشروع أبعادا أوسع وأشمل حتى من السيميولوجيا، ليطلق عليه اسم الغلوسيمية. ولم تعد اللسانيات مجرد نموذج علمي إنساني تقتدي به العلوم الإنسانية الأخرى في مرحلة من التاريخ تميزت بتقديس المعرفة العلمية التجريبية والاختبارية والمتحصل عليها بواسطة المنهج العلمي، بل أصبحت في هذا المنظور الجديد منطلقا لبناء منهج علمي جديد يعالج مختلف الظواهر الإنسانية[5]، وتستمد به كل البحوث والاختصاصات الإنسانية أحقية الانتساب إلى دائرة العلوم. لقد كانت المعركة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين معركة منهج علمي ومنطق تجريبي وإمبريقي في مواجهة التفكير قبل العلمي والخرافي، من جهة، والأدبيات الإنسانية غير العلمية، من جهة أخرى. وكان الرهان على اللسانيات وعلى وجه الخصوص اللسانيات البنيوية لتبني صرح العلوم الانسانية، بمنهج يتوفر على كل الخصائص التي اشترطتها إبستيمولوجيا تلك المرحلة من أجل الاعتراف بعلمية هذا الإختصاص أو ذاك.بل أكثر من ذلك، فمن خلال تأسيس نظرية اللغة وغربلة المكتسبات اللسانية السابقة حاول المشروع الغلوسيمي الظهور في

شكل إطار إبستيمولوجي للعلوم الإنسانية لأنه مشروع يحاول أن يصل إلى مجالات البحث في جميع الظواهر الإنسانية[6].

لم يستعمل هيلمسلاف مصطلح سيميولوجيا ولا سيميائيات منذ بداية العمل على المشروع، بل كان حديثه عن علم اللغة ونظرية اللغة، وكان هدفه إخراج البحث اللساني من مرحلة ما قبل العلمية إلى المرحلة العلمية التي بدأها دي سوسير. كما لم يستعمل مصطلح السيميائية الواصفة ولا السيميائية التقريرية[7] إلى مع الترجمة الإنجليزية لكتابه الأساسي "حول مبادئ نظرية اللغة" omkring sprogteoriens grundlæggelse الصادرة سنة 1953 تحت عنوان Prolegomena to a theory of language والتي راجعها المؤلف نفسه ودققها[8]. مما يعني أن مشروع هيلمسلاف، وأولدال، ربما قد أعلن عنه قبل الأوان، وربما أيضا قد وعد بأكثر مما كانت تسمح المرحلة والمعارف والتكنولوجيات المتوفرة خلالها، بتحقيقه. أو هذا على الأقل ما يسمح تاريخ تطور الفكر اللساني المعاصر باستنتاجه.

لقد أدى ذلك إلى تعطيل وصول أفكار هيلمسلاف وانتشارها بصورة مباشرة عبر المشهد اللساني والسيميائي الأوروبي وهو في أوج نشاطه. فلم يتمتع المشروع الغلوسيمي بالتطبيق إلا بكثير من التحفظ والحذر، وفي مجالات محدودة. وفي الوقت نفسه، ومن الجهة المقابلة، نجد عددا من السيميائيين واللسانيين يمجدون هيلمسلاف إلى درجة مثيرة للانتباه. ومنهم غريماس، ولندكنز .. إلخ. بل مدرسة باريس كلها، تحت جناح غريماس. وقد جعل هذا ما نعرفه من فكر هيلمسلاف يصلنا في الغالب عن طريق وسيط أو أكثر وبصورة مخالفة[9]. ولذلك ربما، كما يرى البعض، لم تحقق الغلوسيمية تأثيرا كبيرا على تطور اللسانيات الأوروبية التي

كانت حينذاك تحت تأثير النحو التحويلي والتداولية المنطقية والبحوث العرفانية على التوالي[10].

في مثل تلك الظروف يقدم هيلمسلاف مشروعا يرفع جميع تحديات المرحلة ويراهن على جهاز مفاهيمي يبنيه على منوال المصطلحيات المنطقية والرياضية، ليخرج بالبحث اللساني والسيميائي بصورة عامة من المراوحة دون أسوار العلم إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه المدى حول دراسة اللغة بمعناها العام الذي يشمل جميع أنساق التعبير والتواصل، ما هو معروف منها وما لم يعرف، وما هو موجود وما يمكن أن يوجد.

يبني هيلمسلاف مشروعه على مجموعة من الأسس أهمها:

أ – مبدأ الإمبريقية في صيغة جديدة ومناسبة للعلوم الإنسانية.

ب – مبدأ المحايثة كبديل عن وضعية أوغست كونت.

جـ – إعادة تحديد موضوع البحث اللساني وإعادة تعريف اللغة.

د – بلورة جهازمفاهيمي ذي بنية نسقية.

هـ – مفهوم الدالة السيميائية.

و – التحليل الغلوسيمي للغة إلى صعيد التعبير وصعيد المضمون ثم إلى شكل وخامة.

سوف نكتفي في هذه الفقرة بالتطرق إلى المبدأين الأولين، أ وب، على أساس أن تعريف اللغة والجهاز المفاهيمي، جـ ود، من المواضيع التي يمكن أن تتوزع تفاصيلها على أكثر من فقرة من فقرات هذه الورقة، ثم نخصص الفقرتين المواليتين للحديث عن الأساس الأخير، و، وخلالهما سوف نتطرق بشيء من التفصيل لمفهوم الدالة السيميائية، هـ.

بالنسبة لمبدأ الإمبريقية، لا يتخذ هيلمسلاف طرقا ملتوية لتذليل العقبة الإبستيمولوجية التي يطرحها أمام اللسانيات. لقد كانت علمية العلم في تلك الفترة تقاس بمدى مراعاته لهذا المبدأ. وهذا ما رسخته تقاليد البحث العلمي في مجالات العلوم الطبيعية وخاصة الفيزيائية. لقد حاولت علوم أخرى في بداية القرن الماضي أن تتشبه بالعلوم الفيزيائية من خلال استعمالها لأدوات القياس الكمي، مثل علم النفس في بعض مذاهبه، وصياغة القوانين صياغة رياضية تقربا من مجال الدقة مثل بعض مذاهب علم الاجتماع، لكن هيلمسلاف كان أكثر جرأة، واختار أن يعيد صياغة تعريف الإمبريقية[11] وفق ما يناسب طبيعة العلم اللغوي كما يتصوره هو؛ كعلم أقرب إلى العلوم التجريدية منه إلى العلوم الطبيعية.

يعرف هيلمسلاف مبدأ الإمبريقية بتحليل مفهومه إلى ثلاثة مبادئ: – مبدأ عدم التناقض – مبدأ الشمول (الاستغراق) – مبدأ البساطة. وهو بهذا المعنى مبدأ لبناء النظرية العلمية، بحيث يشترط في العلم أو الاختصاص البحثي أو النظرية العلمية، أن تكون قضاياها خالية من التناقض وتكون شاملة بحيث تغطي جميع عناصر موضوعها، وجميع الكيانات التي يمكن أن تتوفر فيها الشروط لتكون موضوعا لها، وأن تكون في أبسط شكل ممكن.

من الواضح أن الإبستيمولوجيا التي يستند إليها هيلمسلاف في هذا التعريف منطقية رياضية، وهو بالذات فهمه للعلم الذي موضوعه اللغة.

أما بالنسبة لمبدأ المحايثة، فيقترحه هيلمسلاف بديلا عن التعالي الذي غلب على البحث اللساني قبل دي سوسير، حيث يرى أنه كان بحثا يتناول كل شيء يتعلق باللغة ما عدا اللغة في ذاتها. كان يتناول الجانب التاريخي للغة والجانب السيكولوجي والاجتماعي والمنطقي والفلسفي، لكنه كان يهمل الجانب اللساني. مما

يبرر في نظره تأسيس بحث لساني يتناول الجانب اللساني للغة. ولذلك يقدم تصورا جديدا للغة يجردها فيه من خصوصيات هذه اللغة الطبيعية أو تلك، ويحررها من الخصوصيات النحوية والصرفية والمعجمية والصوتية، التي لا تعبر عن اللغة بمعناها المجرد بل تعبر عن بعض تمظهراتها المعينة. أما مفهوم اللغة عنده فيشمل كل أنساق التعبير والتواصل، اللسانية وغير اللسانية، والموجودة فعلا وممكنة الوجود.

يكون التناول العلمي للغة انطلاقا من اللغة في ذاتها، ومن خصوصياتها وبنيتها وليس مما حولها أو ما له علاقة بها. فيركز التحليل على مكونات اللغة من حيث نسق من العلامات المتكونة من غلوسيمات، أي جزيئات صغرى قابلة للتشكل في علامات، ولا تقبل التقسيم إلى ما هو أصغر منها، داخل النسق نفسه[12]. ومن أجل ذلك يقدم هيلمسلاف ترسانة من المصطلحات والتعريفات والقواعد والرموز[13]، يفترض فيها أن تكون قادرة على تحليل أية لغة والتعبير عن أية علاقة ممكنة داخل النسق اللغوي. وهو جهاز مصطلحي يراعي فيه التماسك الداخلي وعدم التناقض والبساطة التي يقتضيها مبدأ الإمبريقية. بحيث لا يمكن فهم أو استعمال تلك المصطلحات والمفاهيم إلا داخل نسقها ولا يمكن إخضاعها لاختبارات التجربة والمعطيات الملموسة الخاصة باللغات. مثلما هو الحال مع الأنساق المنطقية والرياضية.

إن موضوع العلم في هذه الحالة يحدده صاحب النظرية، ويحدد تصوره ويلتزم بتلك الحدود. ويحدد مقاربته أيضا أدواتها المنهجية ومفاهيمها، ثم يلتزم بها. وهو ما لم يكن يحدث من قبل في البحث اللساني. فعلى سبيل المثال، اهتمت حلقة براغ

بتحليل الجانب الفيزيائي للغة، متمثلا فيما أسمته بالفونولوجيا، معتقدة أنها تدرس اللغة، وهي في الحقيقة كانت تدرس البعد الفيزيائي للكلام.

2- التحليل الغلوسيمي: تعبير/مضمون، شكل/خامة:

يقسم التحليل الغلوسيمي اللغة، أية لغة، ومهما كانت الخامة التي تتشكل منها علاماتها، سواء أكانت في صورة نسق من العلامات أو في صورة نص يسنده ذلك النسق من العلامات، إلى صعيد للتعبير وصعيد للمضمون، وهو ما يبدو في البداية وكأنه بديل اصطلاحي لما يسميه دي سوسير بالدال والمدلول، لكن صعيدي هيلمسلاف، ينقسم كل منهما إلى شكل وخامة. على أن يكون مجال اللغة جامعا بين شكل التعبير وشكل المضمون. وهو ما يختلف عن التقسيم الثنائي السوسيري، لكنه يستوعب المذهب السوسيري بعمق، فاللغة في نهاية المطاف شكل عندهما معا. وبينما يبقي دي سوسير شكله بدون تعريف، يحاول هيلمسلاف أن يدقق شكله داخل الجهاز المفاهيمي للغلوسيمية. الشيء الذي يبرر اعتبار هيلمسلاف نفسه لسانيا سوسيريا بامتياز، ويبرر اعتباره لدي سوسير اللساني[14] الوحيد الذي قدم برنامجا لإقامة اللسانيات على أساس علمي[15].

يحتاج تصور هيلمسلاف إلى قراءة متجردة من الأدبيات السابقة عليه ويحتاج إلى شيء من التمييز بين مفهومي المضمون contenu وما اقترحنا ترجمته بالخامة substance. فهما مفهومان كثيرا ما يتبادلان المواقع في الترجمات العربية، اللسانية والسيميائية بصورة عامة، والهيلمسلافية بصورة خاصة. مما يعطل تلقي الفكر الهيلمسلافي ويجعله يبدو معقدا وتجريديا أكثر مما يحتمل اللسانيون.

إن التحليل الغلوسيمي في الواقع يتعامل مع الموضوع نفسه في جميع مراحل وخطوات التحليل، لكن زاوية النظر تختلف حسب المتطلبات المنهجية. لذلك من الصعب أن نفرق بصورة ملموسة بين حدود المضمون وحدود الخامة في النص، وكذلك بين حدود التعبير وحدود الشكل، مثلما لم يستطع دي سوسير نفسه أن يرسم الحدود الفاصلة بين الدال والمدلول فاعتبرهما مثل وجهي الورقة الواحدة. إن الأمر يتعلق بزاوية النظر، وبالأدوات المنهجية والمفاهيم التي تحدد طريقة تصورنا للموضوع ومكوناته داخل نسق من المفاهيم والتعريفات.

قدم بعض الباحثين قراءة خطاطية لتوضيح البنية الرباعية للموضوع الغلوسيمي كما يلي:

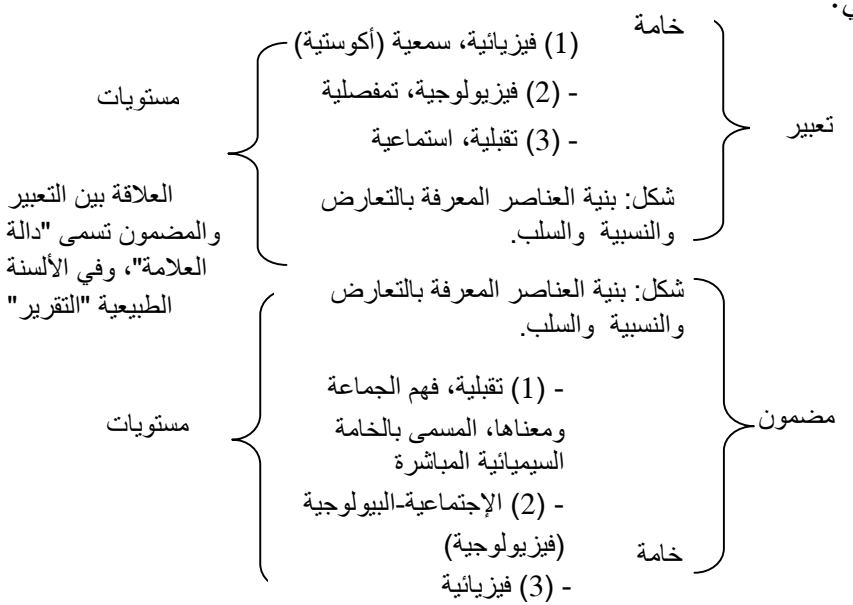

خطاطة يورغن يوهانسن حول بنية العلامة ومكوناتها[16]

يستعمل التحليل الغلوسيمي هذا التقسيم بهدف تمييز أدوات المقاربة، وكذلك تمييز الاختصاصات العلمية المشاركة في دراسة اللغة وبالتالي رسم الحدود بين ما هو لساني وما هو غير لساني على الرغم من أن موضوعه جزء من اللغة. أما الهدف العلمي فيتمثل في تحديد مكونات النسق – والنصوص التي تتشكل بواسطته – من علامات ومركبات العلامات ومكوناتها الصغرى، الغلوسيمات. ثم تحديد العلاقات التي تربط بينها بعضا ببعض، والتي تربط بينها وبين النسق ككل. وتلك العلاقات هي التي تنظم وتصاغ في شكل دوال، أهمها الدالة السيميائية التي تقيم علاقة بين مكونات العلامة، وتميز فيها بين العلامة السيميائية والرمز غير السيميائي الذي يخرج عن نطاق التحليل الغلوسيمي، أو على الأقل يخرج عن موضوع اللغة.

يتمثل أحد أهم الاختلافات بين الأنساق اللغوية والأنساق الرمزية في قدرة الأنساق اللغوية على الإيحاء، بينما تبقى الرموز وأنساقها حبيسة التطابق الدائم بين صعيد التعبير نفسه لصعيد المضمون نفسه، فلا يمكن لتعبيرها أن يكون إلا تقريريا. مثلما هو الحال مع الرموز الرياضية التي تنتج دائما الدلالة نفسها، داخل النسق الرياضي نفسه، رغم اختلاف المركبات التي يمكن أن توجد فيها. إن الأنساق اللغوية تقبل الاندراج واحدا في الآخر، وتقبل استيعاب جميع الأنساق الأخرى، وهو ما يفتح المجال لنشاط السيميائية الإيحائية، موضوع الفقرة التالية.

3- المغامرة السيميولوجية عند بارت:

تتخذ المغامرة السيميولوجية عند بارت عدة أوجه، منها الوجه التنظيري التأسيسي والذي يتجلى في "مبادئ في علم الأدلة"[17] Eléments de sémiologie بشكل خاص، دون أن يقتصر عليه، والوجه البحثي الأكاديمي كما هو الحال في

"نسق الموضة" Système de la mode، والوجه النقدي التحليلي في العديد من الأعمال التطبيقية الأخرى. وفي كثير من الحالات، يشير بارت إلى هيلمسلاف كمصدر أساسي، إلى جانب المصدر الأول، دي سوسير. وفي هذا السياق، لعب بارت، ومعه غريماس، دورا كبيرا في نشر الفكر الهيلمسلافي[18]. فقام غريماس بمأسسة السيميائية وواصل بلورة نظرية اللغة، بينما قام بارت بنشر أفكار هيلمسلاف السيميائية والترويج لها[19]. ولكنه قام بذلك وهو يعيد صياغة تلك الأفكار، ويطبعها بطابعه الخاص، الأقرب إلى اللسانيات والأدب والنقد الأدبي والثقافي بصفة عامة، والمتجذر في الفكر النقدي الفرنسي لتلك الفترة، والمتمثل في المقالات الفكرية والنقدية الفلسفية التي طبعت منتصف القرن الماضي بشكل خاص، وهو يعمل على تجذير التصورات السيميولوجية في تاريخ الأفكار الأوروبية فيستند إلى ليفي ستروس وميرلوبونتي ودوركهايم .. وغيرهم .

استعمل بارت في مشروعه السيميولوجي تكثيفا خاصا جدا لبعض القضايا النظرية التي بلورها هيلمسلاف في مؤلفاته[20]. وهو تكثيف ذو تصور جديد، لا يمتثل لتفاصيل التصور الأصلي ولا لجوهره. بل يعتمد على قراءة "حرة" للأصل، لأن بارت في هذا المقام لا يتصرف كدارس يتتلمذ على يد أستاذ أو مؤسس، بل يتولى مهمة الإسهام الجاد في بلورة المشروع السيميائي كمؤسس. تتميز قراءة بارت بإعجاب شديد، ولكنه ينطلق في هذه القراءة، الحرة والجريئة، من النقاش الدائر في تلك المرحلة في الساحة الفكرية عامة وفي المجال السيميولوجي واللساني بشكل خاص. ولهذا يمكن أن نعتبرها قراءة سيميولوجية لبعض جوانب المشروع الغلوسيمي.

السيميولوجيا البارتية هي في جوهرها لسانيات تعنى بعلامات غير لسانية، تستعمل المفاهيم اللسانية ولا تتردد في رؤية عالم العلامات كما لو كان لغة؛ وتتقاطع هذه النظرة في نقاط كثيرة مع نظرة هيلمسلاف الغلوسيمية، فهذا البناء النظري يبدأ لسانيا ثم يقوده تعريف اللغة المجردة إلى مجال أوسع فلا تعود الغلوسيمية تسمية جديدة للسانيات كما كانت في البداية – كي لا يختلط الأمر على المتلقي – بل تصبح تصورا سيميائيا أقرب إلى المنطق منه إلى اللسانيات. وبارت من جهته، بعد استنفاد الإمكانيات التي تتيحها اللسانيات، بعد مغامرة البحث عن أدوات السيميولوجيا داخل اللسانيات، يفتح باب الاحتمال لأن تخرج السيميولوجيا من حدود اللسانيات، وهو ما تفرضه عليها الطبيعة غير اللسانية للعلامات السيميولوجية.

يؤمن بارت بأن السيميولوجيا مشروع مؤقت – مثل أي مشروع علمي – سرعان ما يستهلك موضوعه ويختفي، فكل علم، بما فيه السيميولوجيا طبعا، يحمل موته في طياته ، في صورة اللغة التي تتكلمه [...] فموضوع السيميولوجيا يجعلها تصبح مؤقتة بفعل التاريخ الذي يجدد اللغات الواصفة[21].

وبذلك تكون حياة هذا العلم رهينة بلورة الأنساق العلامية المختلفة اعتمادا على معطيات التجربة، لكن الغلوسيمية عند هيلمسلاف تتأسس نظريا ولا تحتاج إلى سند إمبريقي – بالمعنى التقليدي للمصطلح – وإنما تحتاج إلى الانسجام الداخلي والقدرة على استيعاب موضوعها بشكل مطلق، ما تحقق منه وما يمكن أن يتحقق. وهي بذلك يمكن، وربما يجب، أن تكون أرقى مستويات البناء العلمي، في مجال الإنسانيات، ثم في مجال المعرفة البشرية كلها.

عند الحديث عن بلورة أنساق الدلالة لا يقف بارت عند خصوصية تعريف الإمبريقية بصيغتها الغلوسيمية، ولا يوليه أي اهتمام، ويواصل استعمال ذلك المصطلح بالمعنى المكرس في إبستيمولوجيا تلك الفترة.بل يعتبر تشكيل تلك الأنساق ضروريا لقيام السيميولوجيا، بينما يعتبر هيلمسلاف أن الغلوسيمية – السيميائية الشاملة عنده – هي التي تقوم بإنشاء تلك الأنساق.

كما يقوم بارت بتحويل مسلمة المحايثة عند هيلمسلاف، كواحد من الأسس الإبستيمولوجية التي أقام عليها صرحه النظري، إلى معطى مطلق. إذ يلجأ هيلمسلاف إلى التحليل المحايث للغة بحيث يجعل التحليل اللساني يتجرد من كل المعطيات المسبقة ومن أية معرفة خارجية، تشكلت بطريقة غير علمية أو تشكلت حول موضوع غير اللغة. بينما تصبح المحايثة عند بارت أنطولوجية لأن كل شيء علامة. فالشجرة عند بارت ليست كذلك إلا إذا كانت علامة على ذاتها؛ تلك هي تقريريتها[22]. وهنا يتضح واحد من الاختلافات الجوهرية بين الأطروحتين: السيميولجيا البارتية تسلم بالمحايثة كبديهية تفرضها الطبيعة البنيوية للأنساق بينما تقوم الغلوسيمية على أنقاض التعالي الذي تدعو إلى تركه، كإجراء منهجي وفي الوقت نفسه كحركة إبستيمولوجية، الهدف منهما الانتقال بالاختصاص مما قبل العلم إلى العلم.

4- تأصيل ثنائية التقرير/الإيحاء: تتميز ثنائية التقرير/الإيحاء عند هيلمسلاف بالاندراج داخل بنية تفريعية كبرى تشمل جميع ما يمكن من المعارف النسقية وموضوعاتها. وفقا للجهاز المفاهيمي للمشروع الغلوسيمي. ولعل الخطاطة التالية تلقي بعض الضوء على التصور الهيلمسلافي:

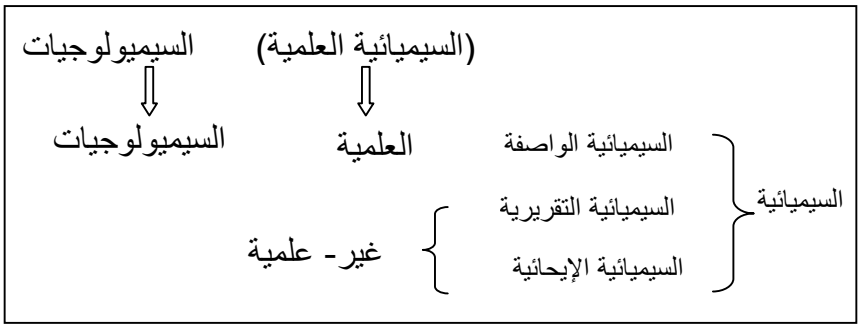

عند بارت التراتبية السيميائية كما يتمثلها كارل باخ[1] ت بلا حدود، والاستعمالات هي التي تصنع المعنى في المجتمع، وتصنع معنى المعنى، وعندها يتدخل مفهوم الإيحاء. بحيث أنه إضافة إلى ما تعنيه الأشياء تأتي المعاني الإيحائية حسب استعمال تلك الأشياء[23]، وفق أنساق دلالية من درجة أعلى، فعلى سبيل المثال: العلامة "سحابة" يمكن أن نجرد لها معنيين:معنى تقريري هو: كتلة من البخار بكثافة ما لها شكل ما توجد على ارتفاع ما في السماء، ومعنى إيحائي هو: التوقعات الجوية مثلا[24]. لكننا نستطيع أن نتصور وجود بعض المجتمعات البدائية لا تعرف المعنى الأول، فهو يتطلب مقدارا من توفر المعرفة العلمية عن الكرة الأرضية، كما يمكن أن تجهل المعنى الثاني وتنتج بدلا عنه معنى ثانيا مختلفا، في إطار فهم خرافي ما للعالم.

إن متعة بارت كلها مركزة حول اندراج الأنساق الدلالية الواحد في الآخر وحول اندراج اللغة الواصفة هي الأخرى في نسق الاستعمال التقريري للعلامات. ربما لأنه كان يبحث عن مخرجات البحث السيميولوجي، كناقد ومحلل ودارس للأعمال الأدبية والإبداعات الفنية ومهتم بمتابعة اشتغال الإيديولوجيا في الأنساق الثقافية. وقد كان ذلك التداخل في الأنساق بمثابة وسيلة عمل فعالة في مقاربة

الظواهر الثقافية، من حيث هي ملفوظات، في مرتبة ما يقابل الكلام سيميولوجيا، بأدوات جديدة هي أدوات اللسانيات؛ لكن هيلمسلاف، وحسب الشكل السابق، لا يقف مطولاعند هذه الثنائية التي يدرجها ضمن خطاطة عامة وشاملة يقوم بصياغتها داخل جهاز من مفاهيم متماسك، ومغلق، ومن الصعب انتزاع بعض المفاهيم منه وشحنها بدلالات مغايرة له. وهذه الصعوبة بالذات هي ما راهن عليه بارت وتحداه. فاللغة الواصفة والسيميائية الإيحائية، تتحولان، مع بارت من نتيجة حتمية لعدد من المفاهيم والتعريفات والمسلمات التي تشكل التحليل الغلوسيمي، المحكم البناء، كما لو كان نسقا منطقيا، أو ربما النسق المنطقي الخاص بالمعرفة الإنسانية، ثم المعرفة بالمعنى المطلق، إلى إضافة دلالية مرتبطة بطبيعة العلامات والأنساق الدلالية.

5- بارت يعيد صياغة هيلمسلاف:

صحيح، يمكننا القول، مع بارت، بأننا، نحن أبناء القرن العشرين، نعيش في حضارة الإيحاء[25]. ربما جاز لنا القول بأنها حضارة الإيحاء الموجه سيميولوجيا. ومع هيلمسلاف، هي حضارة العلامة السيميائية، المنسقة والقابلة لإنتاج الدلالات الإيحائية، فهذه الخاصية عنده هي ما يميز بين اللغة وغير اللغة، من أنساق العلامات والرموز.

لكن لا يهتم بارت بتحليل الأنساق التقريرية التي يعتبرها هيلمسلاف أساسا لا غنى عنه لأي نسق إيحائي، ويذهب مباشرة إلى النسق الإيحائي. بينما يستخدم هيلمسلاف مفهوم السيميائية الإيحائية باعتبارها تخص تحليل الاستعمال السيميائي، وهذا الاستعمال السيميائي يتميز بواسطة أدوات الإيحاء. لكن بارت يستبدل أدوات الإيحاء بالإيحاء في ذاته[26]. إن بارت يعاود البرنامج الإبستيمولوجي الهيلمسلافي

لكن بإبعاده عن هدفه. فعلى السيميولوجيا في نظره أن تبلور لغات واصفة من أجل تحليل أنساق العلامات، وإضافة إلى ذلك، تقيم حول مفهوم الدلالة براديما إبستيمولوجيا جديدا عليه أن يعوض البراديم الوضعي للعلوم[27]. ومن جهة أخرى يستبدل بارت مصطلح الدالة[28]function الذي يتمتع بأهمية أساسية في الجهاز المفاهيمي الهيلمسلافي بمصطلح علاقة[29]relation، فعلى أساسه يقوم التقسيم إلى صعيدي التعبير والمضمون، وعلى أساسه أيضا يقوم التقسيم إلى شكل وخامة؛ جوهر البناء الغلوسمي. ولكن بذلك التبسيط الظاهري تفقد الدالة السيميائية قيمتها البنيوية في النسق من وجهة النظر الغلوسيمية، خاصة وهيلمسلاف يستعمل مصطلح علاقة في سياق مختلف للتعبير عن نوع الروابط الموجودة بين مكونات النظيم[30]syntagme. ولعل بارت هنا قد استعان بالصيغ الرياضية التي اعتمدها أولدال في مقدمته لمنهجية العلوم الإنسانية[31].

يقترح بارت صيغة تجريدية رمزية لمفهومي الإيحاء واللغة الواصفة كالتالي: في الحالة الأولى يصبح النسق الأول (E R C) صعيد تعبير أو دالا للنسق الثاني. ويمكن التعبير عنه كالتالي: R C (E R C)، وهي الحالة التي يسميها هيلمسلاف السيميائية الإيحائية. وفي الحالة الثانية المقابلة يصبح النسق الأول (E R C) صعيد المضمون أو المدلول في النسق الثاني. أو بتعبير آخر E R (E R C)، وهي حالة جميع اللغات الواصفة[32] عند هيلمسلاف.

يقوم بارت في هذا الاستثمار للمفاهيم الهيلمسلافية بالتراجع بعض الخطوات عما وصل إليه هيلمسلاف في عملية صورنة وتدقيق مفاهيم دي سوسير، فهيلمسلاف يحاول تجاوز الثنائية السوسيرية دال/ مدلول التي تنتهي عند مارتيني إلى التقطيع المزدوج، لتكون ثنائية لسانية خالصة، إلى ثنائية سيميائية تتجاوز

اللغات الطبيعية، وتقبل تحليلا آخر تعبر عنه ثنائية شكل/ خامة، وهو ما يميز التصور الغلوسيمي للتحليل. لكن بارت عند هذه المسألة يقرأ هيلمسلاف من خلال دي سوسير ويتمسك بثنائية دي سوسير التي كانت آنذاك في أوج جاذبيتها في الأوساط البنيوية.

هذه القراءة الارترادية جعلت بارت يقدم للسيميولوجيا تصورا خاصا به، ومختلفا بالتأكيد عن هيلمسلاف، لكنه من الجهة المقابلة تصور ينسجم مع مجمل عمل بارت نفسه، النقدي والتنظيري، ويتميز بالقابلية للانتشار، على عكس التصور الهيلمسلافي، الذي كان يتطلب من المتلقي في تلك المرحلة من تطور المعرفة اللسانية ومن الإمكانيات القرائية، أن يبذل مجهودا كبيرا نوعا ما لمتابعة مقترحاته الجديدة، والتي كثيرا ما كانت مستفزة بوعودها الكبرى وبعنف القطيعة التي كانت تدعو إليها كما لاحظ العديد من دارسيه. في هذه القراءة أيضا، يستعمل بارت مفهوم اللغة الواصفة حسب تصور جاكوبسون[33] له في سياق تحديد وظائف اللغة، وبالتحديد اللغة الطبيعية، أثناء الكلام، ولعلنا نفهمها بمعنى اللغة الواصفة للخطاب métadiscours بدلا من اللغة الواصفة للغة[34]métalangage. وهو ما يختلف عن استعمال هيلمسلاف، الذي يستمده من المناطقة البولونيين ثم يستعيض عنه بمصطلح السيميائية الواصفة méta-sémiotique:

"what may be particularly surprising here is that we have discovered a semiotic whose *expression plane* is a semiotic. For, after the development taken by logistics in the work of Polish logicians, one is prepared for the existence of a semiotic whose *content plane* is a semiotic. This is the so-called *metalanguage* (or, we should say, metasemiotics) by which it means a semiotic that treats of a semiotics; in our terminology this must mean a semiotic whose content is a semiotic. Such a metasemiotic linguistics itself must be."[35]

الفرق واضح بين الأساس الوظيفي للغة الواصفة عند بارت والأساس المنطقي عند هيلمسلاف، ويترتب على ذلك أن يصل هذا إلى اعتبار اللسانيات من حيث هي علم، لغة واصفة للغة بينما يضع بارت مصطلحه في منزلة بين المنزلتين، فهو مصطلح ذو حمولة وظيفية ويستعمله في وصف الأنساق السيميائية. ونجد هذه القراءة رائجة في الأدبيات السيميائية لتلك المرحلة، فعلى سبيل المثال نقرأ في مصطلحية راي- ديبوف[36] تعريفا للغة الواصفة مطابقا لتصور بارت.

نعتقد أن السبب في ذلك يرجع إلى اعتماد الباحثين الفرنسيين في تلك الفترة على الترجمة الفرنسية الأولى لكتاب هيلمسلاف "حول مبادئ نظرية اللغة". وهي ترجمة، على ما يبدو، لم تأخذ بعين الاعتبار تصحيحات هيلمسلاف على الترجمة الإنجليزية[37] ولا اقتراحات أندري مارتيني[38] حول استبدال مصطلح اللغة الواصفة بمصطلح السيميائية الواصفة. ففي تلك الترجمة، على سبيل المثال، يظهر المقتطف السابق لهيلمسلاف كالتالي:

«Ce qui surprendra peut-être ici, c'est que nous ayons trouvé des langages dont le *plan de l'expression* est un langage. Les développements récents de la logique, tels que nous les connaissons à travers les travaux des logiciens polonais, nous ont en effet préparés à reconnaître l'existence de langages dont le *plan du contenu* est lui-même un langage. Ce sont là des *métalangages*, c'est-à-dire des langages qui traitent de langages, ce qui, traduit dans notre terminologie, signifie que ce sont des langages dont le contenu est un langage. La linguistique, par exemple, est un métalangage.»[39]

لعل اعتماد هذه الترجمة قد أثر على عدد من السيميائيين بالطريقة نفسها، ولعل ذلك بتأثير من قراءة بارت، مما جعلهم يتعاملون مع عدد من المفاهيم الجديدة عند

هيلمسلاف على غير ما أراد. والسؤال الذي يمكن أن نطرحه هنا هو: إلى أي حد أثرت تلك القراءة على مسار الأطروحة الغلوسيمية؟ نعتقد أن قراءة بارت أعطت نفسا جديدا للأطروحة واستثمرت ما يقبل الإضافة إلى المعارف المتراكمة آنذاك بصورة إيجابية وأغنت الأدبيات السيميولوجية ثم السيميائية، بعيدا عن مسار، أو حتى مصير، الأطروحة الهيلمسلافية التي كانت تحمل عقباتها معها.

خاتمة: من الممكن الآن أن نقرأ هيلمسلاف، دون المرور بالمحطة البارتية، لا من باب مجرد المرور ولا من باب المساءلة، ولا بأية محطة أخرى مماثلة: محطة غريماس مثلا، تماما كما نقرأ بارت منسجما ومتماسكا من حيث هو برنامج علمي ونقدي متعدد الأوجه. فالسيميائي الدنماركي هو الآخر قدم برنامجا في منتهى الاستفزاز والجرأة، يطمح به إلى تجاوز الفكر اللساني كله، لتحرير العلم اللغوي من قيود اللسانيات التقليدية ومن اختلالاتها، وبناء العلم الذي يدرس اللغة، من جديد، على أسس علمية وفي صورة تجريدية منسجمة داخليا وخالية من التناقض. لنكتشف أنه علم لا يقتصر على دراسة الألسنة الطبيعية فقط، بل جميع أنساق التعبير والتواصل والدلالة. لقد حاول هيلمسلاف أن يسحب مشروع المنطقي كارناب، الباحث عن لغة رمزية دقيقة تكون بديلا عن المنطق وتصبح هي لغة العلم والمنتوج العلمي أمام العالم، ليخرجه من المغامرة المنطقية إلى المغامرة اللسانية.

لكن ذلك البرنامج، بتلك المواصفات، لم يحدث الثورة التي وعد بها في مجال اللسانيات، على الرغم من وجود آثاره واضحة وبارزة في معظم المؤلفات والمعاجم التي تتطرق للسانيات تلك المرحلة من التاريخ. وهو ما يفتح شهية

القراءة الآن، خارج أسوار الهجمة المتوترة على البنيوية بصفة عامة، وأمام أعمال هيلمسلاف التي أصبحت متوفرة الآن باللغة الفرنسية والإنجليزية وغيرهما.

الهوامش:

[1] - Badir, Sémir. Hjelmslev. Les belles lettres, Paris 2000, p. 28.

[2]- من خلال تلك المفاهيم يتجلى جوهر البناء الغلوسيمي (Badir 2000)

[3] - Hjelmslev, Louis. Principes de grammaire générale. Munksgaard , Kobenhavn 1968, p 7.

[4] - Hjelmslev, Louis. Le langage. Minuit, Paris 1963, p. 25.

[5] - Hjelmslev, L. &Uldall, H. J. Outline of glossematics. Nordisk sporgogkulturforlag, Kobenhavn 1957, pp. 1-35.

[6] - Hjelmslev, Louis. Le langage. Pr. Greimas, J. A. Minuit, Paris 1966, p. 10.

[7]- استعمل هيلمسلاف في الطبعة الأولى لكتابه "حول مبادئ نظرية اللغة" المصطلحين التاليين: اللغة الإيحائية واللغة الواصفة metasprog وkonnotationsprog.

[8]- لذلك تعتبر تلك الترجمة أدق من الأصل الصادر بالدنماركية سنة 1943 والذي قدمه وعلق عليه أندري مارتيني، الذي كانت له بشأنه مراسلات مع المؤلف، تعلق بعضها بالمصطلحات المستعملة.

[9] - Badir, ibid, p. 13.

[10] - Badir, ibid. p. 15.

[11] - Hjelmslev, Louis. Prolegomena, p. 10.

[12]– يمكن، باستعمال أدوات علمية أخرى في إطار علوم أخرى، أن تقبل تلك الوحدات التقسيم، لكننا في هذه الحالة نكون قدي غيرنا الإطار العلمي للتحليل وخرجنا من التحليل اللغوي.

[13] - Hjelmslev, Louis. Résumé of a theory of language. Nordisk sprog ogkulturforlag, kobenhavn 1975.

[14] - Hjelmslev, Louis. Prolegomena, p. 7.

[15]- ربما ذلك ما جعل بعض الباحثين يطمئنون إلى قراءة هيلمسلاف من خلال الأصل السوسيري الذي يشير إليه دائما في مؤلفاته. غافلين عن الأساس المنطقي التجريدي الذي يبني عليه أطروحته.

[16]- Jørgen Dines Johansen.Hjelmslev and glossematics. In Semiotik HSK 13.2 1998. Walter de Gruyfer. Berlin – New York 1998

[17]- بارث، رولان. مبادئ في علم الأدلة. تر. بكري، محمد الـ. دار قرطبة، الدار البضاء 1986.

[18] - Badir, op. cit. p. 24.
[19] - Badi, ibid.
[20] - Badir, op. cit. p. 163.
[21] - Barthes , Roland. L'aventure sémiologique. Seuil, Paris 1985, p. 79-80.
[22] - Badir, op. cit. p. 164.
[23] - Badir, op. cit. p. 164.
[24] - Badir, ibid.
[25] - Barthes, op. cit. p. 245.
[26] - Badir, op. cit. p. 166.
[27] - Badir, ibid.

[28]– يستعمل هيلمسلاف مصطلح الدالة للتعبير عن العلاقة المجردة التي تربط صوريا بين صعيدي التعبير والمضمون وفي إطار التحليل الغلوسيمي يضع تعريفات لعدد من العلاقات الممكنة بين ما يسميه بالوظيفين، في العلامة، وهم أجزاء الدالة.

[29]– يعتبر سمير بدير أن استبدال مصطلح الدالة بمصطلح العلاقة نوع من التبسيط المخل بالغرض. انظر (Badir 2000, p. 169)، لكننا نعتقد أنه على مستوى الإصطلاح يمكن أن نبرر هذا الاستبدال بما تتطلبه الكتابة الرمزية المشابهة للمنطق الرمزي من استعارات. فالرمز R ، مع إشارته إلى مفهوم عام للعلاقة، هو رمز مكرس في أدبيات المنطق الرمزي للتعبير المجرد عن أية علاقة بين طرفين. ولعل هذا الاستعمال عند بارت جاء بهدف إضفاء مزيد من الصورنة والتجريد على مفاهيم هيلمسلاف.

[30] - Badir, op. cit. p 169.
[31] - Hjelmslev, L. &Uldall, H. J. ibid.
[32]- Barthes, Roland. L'aventure sémiologique. Seuil, Paris 1985, p. 77.
[33]- Jakobson, Roman. Linguistique et poétique, in « Essais de linguistique générale ». Minuit, Paris 1963, p. 217.
[34]-Badir, op. cit, p. 185.
[35]- Hjemslev, Louis. Prolegomena. p. 119.
[36] - Rey-Debove, Josette. Lexique sémiotique. Puf, Paris 1979, p.87.
[37] - Hjemslev, Louis. Prolegomena to a theory of language. Tr. Whitfield, F. J. Wisconsin Press, Madison 1963.
[38] - Arrivé, Michel &Ablali, Driss. Hjemslev et Martinet : Correspondance, traduction, problèmes théoriques. La linguistique. N° 37 (1) année 2001.
[39] - Hjelmslev, Louis. Prolégomènes à une théorie du langage. Traduit de l'anglais par Léonard, Anne-Marie. Minuit, Paris 1968, p. 161.